المرأة المسلمة

كان الأثر المباشر لفتوح الإسلام ، هو إخضاع العرب لأخلاق بيزنطة وعادات إيران . فقد سارع البدو المنتصرون إلى أن يقتبسوا من حضارة الفرس والروم طرق المنافع ، وأساليب اللهو والترف ، ولذيذ الرذائل . ولما كانوا فوق كل شيء شغوفين بالجمال[1]، فقد أحاطوا أنفسهم بالأسيرات الحسان ، الخبيرات المتفننات ، المهذبات اللينات ، اللواتى دفعنهم إلى أن يهملوا وينسوا رفيقتهم السمراء ، وزوجتهم الصارمة النافرة . ولم يكد ينقضى مائة عام بعد وفاة محمد ، حتى كان الخمر ومجون الخلفاء ، والملذات اليسيرة المنال والجوارى والغلمان، قد أفسدت الأخلاق وقضت على أهم صفات العرب الأصيلة . ويمكننا أن نميز منذ ذلك الحين بين طائفتين من النساء : الزوجة وهى القالب الذى تصنع فيه الأولاد ، والجارية وهى أداة المتعة وزينة الحريم . وأصبح التعليم خصوصية الجوارى ؛ فقد كان حسنهن يحلى بجميل الفنون ، إذ كانت وظيفتهن فى آخر الأمر هى الإمتاع . لقد كن يرقصن فى رشاقة ، ويغنين فيطربن ، ويرتجلن الشعر ، ويحفظن الأخبار ، ويعرفن كيف يلقين فى كل مقام مقالا ، وكيف يروين من القصص ما يسحر سامعيهن من

(١) قالوا : « عقل المرأة جمالها ، وجمال المرء عقله » .

أهل العلم والشعر والأدب والبراعة . وأما الزوجة فقد كانت على عكس ذلك تتشح برقار الأم ، وتعيش فى معزل عن المجتمع ، وتهمل عن عمد ثقافتها وتظهر ما تتميز به من جهل واضح كان هو الدليل على فضلها ، والوثيقة التى تثبت بها عريق نسبها . ولقد كان يبدو فى بعض عصور الحضارة الرفيعة المتألقة — كعصر الرشيد وألف ليلة وليلة ، وزمن خليفة الأندلس عبد الرحمن والحسناء زهرة ، وزمن الفاطميين وملوك غرناطة — أن مكانة المرأة فى الصدارة . وبلغ من دلال الحسان فى مختلف تلك العصور ، عصور النساء والأدب ، أن بتن لا يلقين السلاح حتى يحصلن على شىء من آثار الفن صيغ من وحيهن ومن أجلهن ، كقصيدة أو أرجوزة ، أو أنشودة خفيفة . ولذلك كان الشعر فى تلك العصور منصرفا فى جملته إلى التغنى بالمرأة والغزل .

وكان لكل شاعر ذخيرة من الألفاظ والمعانى الصالحة للمناسبات ، يستطيع أن يصوغ منها أرشق أسلحة الهجوم أو الدفاع ، كما يقتضيه هذا الموقف أو ذاك من مواقف الغرام . فقد كان كل شاعر يحرص على أن يتمتع بحماية واحدة أو أكثر من حظيات القصر ، وكان أولئك يغمرن الشاعر بالنعم مقابل ما ينظم فيهن من أبيات المدح أو المجون . فراجت حينذاك وتدفقت ألاعيب البيان وقصائد الغزل ، مما لا نجد له مثيلا فى أى أدب آخر . وفاضت فى كل دار وازدهرت أبيات الشعر الصادحة بروعة الحسن والحب ، وانبثقت من كل جانب كأنما أطلقها

سحر ساحر . وكانت الأبيات تخط بحروف من الذهب أو الفضة وتعلق على الأبواب ، أو تنحت فى الرخام وتثبت على صفحات الجدران ، أو تطرز على الحرير فتكسو النمارق والأرائك . وكان النساء يحملن من أبيات الشعر ما تخطه الحناء على أكفهن ، وما تزدان به مناديلهن وبراقعهن ومراوحهن وخواتمهن وأقمصتهن وأوشحتهن . . وكانت الأبيات التى تجاور مفاتن الحسان ورقتهن ، تناسب الموضع الذى علقت فيه أو نقشت عليه أو طرزت أو وشمت به . وهكذا جمعت بين الحب والشعر وشائج وثيقة ، لا يمكن معها تمييز أحدهما من الآخر ما دام الحب يبدو لنا موحيا بالشعر والشعر يوحى بالحب كذلك .

ولقد أدى ذلك بالطبع إلى رفع مكانة المرأة — أو مكانة بعض النساء على وجه التحديد .

ومما يؤيد لنا تلك الظاهرة ، هاتان النادرتان :

فى ذات يوم تجاسرت جارية من حظيات الخليفة عبد الرحمن ، على أن تخاصم مولاها ، فاعتكفت فى مسكنها ، وأقسمت إنه لخير لها أن يغلق دونها الباب من أن تفتحه للخليفة . وأفزع هذا الحديث رئيس الخصيان ، فظن أنه يسمع كفراً ، وهرع يستغفر أمير المؤمنين وينقل إليه ما ألقت به الجارية العاصية من قول منكر . فأمره عبد الرحمن وهو يبتسم بأن يقيم أمام باب حظيته جداراً من قطع النقد الفضية ، ووعد بأنه لن يعبر ذلك السد المانع ما لم تهدمه الجارية راضية لتستولى عليه .

وتضيف القصة أن باب الجارية — وقد هدأت ثورتها — بات مفتوحا للخليفة فى الليلة نفسها[1] .

وفى ذات يوم ، راحت « رميقة » زوجة « المعتمد » تنظر من إحدى نوافذ القصر فى قرطبة إلى كرات الجليد الهشة تتساقط على الأرض ، وهو منظر نادر فى ذلك البلد الذى لا يكاد يبلغه الشتاء . وفجأة ه انخرطت فى البكاء . فسألها زوجها :

— ما بك يا عزيزتى ؟

— ما بى ؟ بى أنك بربرى ظالم متوحش ! انظر ؛ ما أرق الجليد وأبدعه وما أروعه ! انظر كيف تحط هذه الكرات الناعمة فى رفق على غصون الشجر ، وأنت يا جاحد لا يخطر لك أن تقدم لى هذا المنظر كل شتاء ، وما طرأ على فكرك قط أن تصطحبنى إلى بلد لا ينقطع فيه سقوط الجليد !

فأجابها الخليفة وهو يكفكف ما سال على خديها من عبرات :

— لا تستيئسى هكذا يا حياتى وخيرى ، فلسوف تنالين جليدك كل شتاء بل وفى هذا المكان ذاته ، وأنى لكفيل بذلك .

وأمر بغرس أشجار اللوز على سلسلة قرطبة بأكملها حتى يحل ما يكسو هذه الأشجار الجميلة من زهر أبيض محل كرات الثلج

---

(١) كاردون (Cardonne) : تاريخ أفريقيا وأسبانيا ، الجزء الأول. وفلوريان (Florian) : موجز تاريخى عن عرب الأندلس ، ص ٣٣ — ٣٤ .

البيضاء التى هامت بها « رميقة »[1] .

وما تلك الأحاديث الشائعة إلا روايات من وشى الأدب . وأما الواقع ، فإن الجوارى المرموقات كن يسارعن إلى تسوية وضعهن الاجتماعى ، ويسعين إلى أن يصبحن زوجات شرعيات . ولما كانت الزوجة الشرعية — حتى فى الشرق — أقل نفقات من العشيقة ، ولو كانت جارية ، فقد كان الأمير يتزوج جارياته ؛ وإذ ذاك تتكلف الجارية المتزوجة أن تغدو سيدة ، وأن تثبت أنها ذات حسب ونسب كالحرائر ؛ وكان يعنى ذلك أن تركن إلى الجهل . ومنذ ذلك العهد لا نجد ثمة ما يميز بين طائفتين من النساء ؛ فقد امتد الجهل وتفشى فى كل مكان . وهكذا نستطيع أن نقول : إن المرأة فى جميع طبقات هذا المجتمع ، لم تكن طوال القرون الاثنى عشر الماضية ، إلا الخادم الرسمية للزوج والأولاد .

ولم يقنع القوم باستخدامها ، بل عاملوها معاملة عدو يعيث شرا وفساداً . وظل الرجل زمانا طويلا لا يشغله شاغل سوى حماية نفسه منها وحمايتها من نفسها . فلقد سجنها ، ودفنها حية فى دور واسعة ذات نوافذ متينة القضبان ، وأحاطها بجشم قساة ، ما كان لهم أن يجيبوا فى ذكاء دعاء الجسد ؛ لأنهم أخرسوا ؛ وأولئك هم خرس القصور التركية . ولفق القوم حكايات ، واستشهدوا بجميع أنبياء العصور الغابرة وتدخل الشعراء فى الأمر ، وأجمع الكون على لعن المرأة وتحقيرها ، حتى لقد

(١) دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ، الجزء الثانى ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

جرى ذلك فى كلامهم مجرى المثل ، كما فى قولهم : « النساء شرك الشيطان ». المرأة الفاضلة بين سائر النساء كالغراب الأبيض البطن بين الغربان . ما حرم على امرأة شيء إلا فعلته. الخضوع لإرادة امرأة يقصر العمر . حذار أن تتبع نصيحة النساء » .

وليس هذا كله بالجديد ، فإننا لنكاد نجد ما يوازيه فى جميع اللغات. فالصينى يقول : « ينبغى أن تسمع زوجتك وألا تصدقها أبدا »، والروسى يؤكد أنه « فى كل عشر نساء روح واحدة » ، والإيطالى ينصح باستخدام المهماز للحصان سواء أكان طيبا أم خبيثا وباستخدام العصا للمرأة سواء أكانت طيبة أم خبيثة ، والإسبانى يوصيك بأن تحذر المرأة الخبيثة وبألا تثق مع ذلك فى المرأة الطيبة[1] .

وهذا مثل من ذم الشعر للمرأة :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن ... جزوعا إذا بانت فسوف تبين
فإن هى أعطتك اللبان فإنها ... لآخر من ظلابها ستابن
وإن حلفت لاينقض النأى عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وهذه حكاية أخرى :

فى ذات يوم ، لقى عيسى بن مريم الشيطان وهو يسوق أمامه أربعة حمير محملة ، فسأله عيسى :

— ماذا تفعل ؟

---

(١) عن جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٢٨ .

— إنى أنقل سلعا وأقصد عملائى .

— فما هذه السلعة الأولى ؟

— إنها القسوة .

— ومن يشترى ذلك ؟

— الولاة .

— وما سلعتك الثانية ؟

— إنها الحسد .

— ومن يشتريها ؟

— العلماء .

— وما هى السلعة الثالثة ؟

— سوء النية .

— ومن يشتريها ؟

— التجار .

— فما تلك السلعة الرابعة ؟

— إنها المكر .

— ومن يشترى ذلك ؟

— ذلك صنف يخص النساء[1].

وفيم المزيد من الأمثلة ؟ وبين أيدينا قصة « ألف ليلة وليلة » وهى قصة ملك خانته زوجته ، وقد تحقق من أن الجن أنفسهم — رغم ما يتخذون

---

(١) بيرون : النساء العربيات .

من احتياطات عجيبة — تخونهم زوجاتهم أيضاً على نطاق واسع ، فقرر ألا تخدعه امرأة فيما بعد ، ومضى يسلم للجلاد كل صباح عروس الليلة البارحة ، حتى أتى اليوم الذى تمكنت فيه شهرزاد من أن تنسيه دروس ماضيه — وما كان أوضحها — بل وأفلحت فى استدراجه إلى الاعتراف بفضل النساء ، وهى تروى له القصص . . . ألا إن كيدهن عظيم !

والشرقيون قوم قد تغذوا منذ صباهم بقصص ألف ليلة وليلة ، ثم تثقفوا بحكمة الأمثال ومأثور الحكايات ومعانى الشعر ، فأمسوا بغريزتهم يحذرون النساء رغم شغفهم بهن ، ويخشونهن ويحتقرونهن فى آن واحد .

ولما كان الرجل هو الأقوى ، فقد استسلم لغرائزه الأمارة بالسوء . ومضى يروّع ويذل تلك التى كان من حقها عليه أن تظل رفيقته ، وواصل ذلك حتى جعل منها كائنا يقل عنه قدرا ، لا شخصية له ، ولا لون من ألوان الكرامة ، بل ولا روح كما قد يقال . وحينما نبه الرجل صوت ضميره يؤنبه على جوره وطغيانه ، تسلح بالكتاب الشريف ، وطفق يؤول ويعلل ويحلل ، ويقسو على النصوص فى تفسيرها ليثبت أنه يصدع بأمر رسول الله . وهكذا حدث يوم راحت أوربا تتساءل عن سبب تخلف المرأة المسلمة ، أن كان الجواب معدا ، وكان من البساطة بحيث أقرته فى حماس : جواب يزعم أن الإسلام هو السبب الوحيد فى انحطاط المرأة وتخلفها ، وذلك بما يبيحه للرجال من تعدد الزوجات ومن الطلاق وبما يفرضه على النساء من الحجاب والانزواء . وتلك مسألة هامة خليقة بأن تستوقفنا .